(٣٦) صفات العالِم الرباني ٢

(خُلُق الأمانة)

د. راغب:

مازلنا نتحدث عن صفات العالِم الرباني، وذكرنا أن الدور الذي يقوم به العلماء هو الدور المحوري القيادي الذي يُغير به الله تعالى حال الأمة من ذِلة إلى عِزة ومن ضعف إلى قوة ومن تبعية إلى تمكين بإذن الله رب العالمين.

ونتحدث عن طرف من أخلاق العلماء ويقول حبيبنا صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ»، و في روايةٍ (صالحَ) الأخلاقِ.

الراوي: أبو هريرة -المحدث: الألباني

المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ٤٥

خلاصة حكم المحدث: صحيح

والعلماء هم ورثة الأنبياء وسادة هذه الأخلاق وحملة هذا اللواء، ونتباحث معًا في بعض الأخلاق التي ينبغي للعالِم الرباني أن يتصف بها.

أخلاق العلماء هي كأخلاق المسلمين لا بد أن تكون شاملة في كل أنواع الأخلاق التي ذكرها حبيبنا صلى الله عليه وسلم وجاء ليكملها كما جاء في الحديث، لكن لا بد أن يكون العالِم سابقًا للناس في هذه الأخلاق ويكون مضربًا للمثل وقدوةً يؤتسى به في هذا المجال.

ومن أهم الصفات التي ينبغي للعالِم أن يتصف بها هي خُلُق الأمانة، وبها جاء الأنبياء وبها كانوا يلقبون بها في بداية عملهم حتى يطمئن الناس إلى أمانة التوصيل من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، فإذا حمل العلماء أمانة العلم فلا بد لهم أن يصلوا بها إلى الناس في أمانة، فماذا تقول في هذا الخلق الكريم؟

د. صلاح:

قال الله تبارك وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨]، ويقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧]

الأمانة حِمل ثقيل ويجب أن يحمله العالِم، والله سبحانه وتعالى جعله من صفات المؤمنين : {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } [المؤمنون: ٨]، [المعارج: ٣٢] ، ويقول: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا} [الأحزاب: ٧٢].

وقال رسول الله صل الله عليه وسلم: «إذا حدَّثَ الرجلُ بالحديثِ ثم التفتَ، فهي أمانةٌ»

الراوي: جابر بن عبدالله المحدث: الألباني

المصدر: صحيح أبي داود - الصفحة أو الرقم: ٤٨٦٨

خلاصة حكم المحدث: حسن

وأمانة حمل الرسالة هي كما سماها الإمام بن القيم: (أعلام الموقعين عن رب العالمين)، فالعلماء يوقِّعون نيابة عن الله تبارك وتعالى عندما يُصدِرون الفتاوى والأحكام، وكذلك علماء الأمور الطبيعية والأمور الحياتية لديهم أمانات كبيرة من العلم الذي تعلموه بأن يُفيدوا به الناس، ولا تتحول علوم الذرة إلى قنابل تُدمر البشرية ولا تتحول العلوم والمعارف إلى مكاسب وإن دمرت البيئة وتسببت في ثقب الأوزون وتسببت تلوث عام في البيئة، فهذه كلها أمانات يُسأل عنها العلماء.

والعالِم الطبيب لديه أمانة ضخمة فقد يكتب تقريرًا ما يُضيِّع به الحقوق ويؤدي إلى حدوث جنايات كبيرة، ونحن نرى بعض الأطباء يُجرون عمليات جراحية فقط لتحصيل المال أو لنزع أعضاء من الجسم، فأين الأمانة في هذا الجانب من العلماء الأطباء؟

أرى أن هناك ٣ مستويات أزن بها كل الأمور:

١- مستوى اصحاب الشمال:

وهم الذين يُضيِّعون الأمانة ولا أخلاق لهم، والخلق السيء يذيب الحسنات كما يذيب الماء الجليد،

٢- مستوى أصحاب اليمين:

وهم ذوي الخلق الحسن، و الذين يحافظون على الأمانة،

٣- المستوى السامي:

وهو الخلق السامي للعلماء بشكل خاص، لأن العلماء كُتبت لهم رسائل خاصة في الأخلاق وفي الأمانة،

ونحن في الحقيقة إن أردنا أن ننزل من هذا المستوى السامي، وهو مستوى المقربين مستوى رعاية الأمانة وأداء الأمانة، كما حتى الحديث الواحد فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «نضَّرَ اللَّهُ عبدًا سمعَ مقالتي فوَعاها، ثمَّ بلَّغَها عنِّي، فربَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هوَ أفقَهُ منهُ»

الراوي: أنس بن مالك -المحدث: الألباني

- المصدر: صحيح ابن ماجه - الصفحة أو الرقم: ١٩٤

خلاصة حكم المحدث: صحيح

تحمل الأمانة وأداء الأمانة بينهما فرق لدى علماء الحديث، فأدائها لها شروط أخص، لأنه أصبح عالمًا ويُعلَّم.

وهنا نأتي إلى أمانة العلماء في نقطة خاصة جدا وهي أمانة ذِكر المصدر لكل معلومة، فالعالِم عندما نقرأ كتابًا ما لا يجوز شرعًا ولا خلقًا ولا كرامة أن ينتزع هذ الجُهد وينسبه إلى نفسه!

كان هناك رئيس جامعة إسلامية كبرى تبين أنه سَرق رسالة الدكتوراه التي قدمها، وصاحب الرسالة يذهب إلى المحكمة والمحكمة تُثبت أن هذا الرئيس لِص، وهو شيخ ورجل عالِم ويعد من العلماء ويسرق الرسالة! لكن علماء القانون لم يكونوا يتصورون أن قد يكون من العلماء والشيوخ من هم لصوصًا ويسرقوا المعلومات، ولم يجدوا القضاة نصًا قانونيًا لتجريم مثل هذا الفعل مع ثبوت الجريمة، وبالتالي قالوا أنه لو أن لجنة المناقشة أحياء فهم وحدهم الذين لهم سحب الرسالة منه، ولكنهم كانوا أمواتًا ولم يستطع أحد أن يفعل له شيئا والأكثر من هذا أنه تم تجديد فترته الرئاسية ولم يُقال من منصبه!

د. راغب:

في قضية الأمانة العلمية هذه، ليس بالضرورة أن ينقل رسالة كاملة لكن لو أخذ مقطعًا صغيرًا من كتاب ولم ينسب هذا القول إلى صاحبه فهذا يُعد من الخيانة للأمانة وعدم إضافة الفضل لأهله.

أنا أذكر في كتب العلم الإسلامية، في كتب التفسير والفقه والرقائق، كان دائمًا علمائنا وأسلافنا الصالحين يذكرون دائمًا قال في هذه الكلمة ويقول قال فلان، فدائمًا المفسر ينقل أقوال العلماء ثم في النهاية قد يقول رأيه.

لكن أحيانًا ومن روعة امانته ينقل في كتابه الآراء المتعارضة التي قد تعارض رأيه شخصيًا ويثبت لها حجتها ودليلها، وهذا من تمام التجرد، دون أن ينظر إلى أن هذا القول المُعارض له قد يميل إليه القارئ.

وأحيانًا قد نجد أحد العلماء يتجول بين صفحات الكتب والمصادر ليُخرج ما يسير مع رؤيته ويترك ما يتعارض معها، لذلك يُقصر الآراء على رأي واحد والقارئ لا يعرف أن هناك آراء أخرى في هذا الموضوع.

فما رأيك في أن المؤلف يستعرض الآراء المختلفة في كتابه ثم يقول في النهاية رأيه بقوة ووضوح، أم أن الأفضل أن ينتقي من كل بستانٍ زهرة ويترك الآراء الأخرى؟ حتى بخصوص الآراء الفقهية؟

د. صلاح:

من الناحية العلمية والأدبية والفقهية والأخلاقية لا يليق بالإنسان أن يذهب إلى الموافقين له في الرأي فيأخذ منهم آرائهم وينسب أو لا ينسب لهم.

لكن القوة الحقيقة هي في أن الإنسان يعرض الرأي والرأي الآخر، ولا يوجد منهج ممكن أن يُحتذى به كما في كلام الله تبارك وتعالى، فالله عزَّ وجلَّ ينقل كل ما قاله الناس حتى فيه هو تبارك وتعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة:٦٤]، فهذا خبر ومنهج وصفي لكن المعيار {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة:٦٤].

والله يورد أقوال الأمم لرسلهم بالضبط كما هي ثم يعقب القرآن على هذا بشكلٍ موضوعي جدًا.

فمن قوة الاستدلال العلمي أن يأتي الإنسان بالآراء المتعارضة فيؤيد رأيًا بدليل جديد ويرد على وجوه الاعتراض بطريقة فيها سبب وأدب، فيعارض هذا الرأي بدليل وبأدب في التعامل مع الرأي المخالف، وهنا يكتمل النضج العلمي.

وأحيانا عندما يتعرض عالِم ما لبعض القضايا ويأتي بالآراء الموافقة له ويترك الآراء المعارضة تجده ينسب لبعض الأئمة المخالفين له في الرأي قولًا آخر.

هناك حادثة لا أنساها، عندما بدأت الانتفاضة في فلسطين وكانت هناك حركة طلابية ضخمة في جامعة القاهرة لتأييد الانتفاضة ضد المحتل الصهيوني، كان ناك شاب في السنة الثانية من كلية الحقوق يخرج بين طلاب المدينة الجامعية كل يوم في المسجد ويقول أن صلاة الجماعة يجب أن تكون قصرًا، لأنهم طلاب تركوا بلادهم الأصلية وعليهم الصلاة

قصرًا، وكان منهم من يبقى في المدينة الجامعية تسعة أو عشرة أشهر!. وتَصعَّد الأمر وكان معه مجموعة يضربون الطلاب وبدأت تحدث المشاجرات بينهم، فأرسلت له: (أرجو أن تتكرم مشكورًا بأن تأتي إلى كلية دار العلوم لكي نناقشك في آرائك)، فأرسل لي هذه الرسالة: (العلم يُسعى إليه ولا يَسعى العلم إلى الناس).

وزادت الأزمة والمشكلة فالدكتور عميد الكلية محمد حسن رحمه الله ارسل له لمناقشته، وعندما تمت مناقشته بدأ يُنسِب إلى ابن حزم والنووي وابن رشد والشافعي وغيرهم كلامًا عكس حقيقته، ولكن كان هناك من معهم كُتب هؤلاء الأئمة وأوضحوا له أنه على خطأ، وبالتالي ظهرت حقيقته ولكنه لم يَرجع عن أقواله، ولكن تم إنهاء المشكلة.

د. راغب:

المشكلة الأكبر أن عامة الناس لا يعرفون كل هذه التفاصيل، والعالِم وإن كان على مستوى علمي بسيط عندما يُسأل في المسجد أو على الهاتف في قضيةٍ ما، فمن الأمانة أن يقول أنا رأيي كذا، بل ويذكر الآراء الأخرى حتى لا يُحدر واسعًا لأنه قد يكون في الرأي الآخر مَخرج للسائِل، بدل من أن يُقصر كل الإجابات على إجابة واحدة.

لأن هناك كثير من القضايا اختلف فيها الفقهاء لتحقيق المصالح للناس، فتختلف الفتوى باختلاف الزمان والمكان والظروف.

وهناك الأمانة في توصيل النصيحة والكلمة، لأنه أحيانًا العالم يرى شيئًا ومن الأمانة أن يتكلم، لكن أحيانًا يكون لهذا الكلام ثمنُ ما، ولكن لا بد له ان يتكلم من باب أمانة الكلمة، وهو لديه العلم و لو كتم هذا العلم سيخون الامانة.

وهذا في جميع القضايا فليس بالضرورة أن تكون قضية حاكم أو سلطان أو قضية تودي به في غياهب السجون، بل ممكن أن تجعله يخسر إنسانًا.

فما الذي يُقوي العالِم ويشجعه على الحفاظ على هذه الأمانة؟

د. صلاح:

بتعظيم الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، والله سبحانه وتعالى أجاب في سورة الأحزاب ما يُساعد العالم في مثل هذه الحالة: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ} [الأحزاب:٣٩]

و لذلك أقول وخاصة لعلماء الشريعة، لا يُؤخذ عن أحدٍ إلا إذا جمع ثلاثة أشياء:

١- الحجة الشرعية: وهو أن يكون من الراسخين في العلوم الشرعية: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧].

٢- أن يكون صاحب خشية قلبية: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، {وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ} [الأحزاب:٣٩]. لأن الخشية شرط مع التبليغ، لأن التبليغ له ثمن وضريبة سيدفعها، لكن عند الله الأجر والمثوبة.

٣- أن يكون صاحب حركة دعوية: فيكون مُبادر إلى إنكار المنكر وإشاعة المعروف وتذكير الناس، والوقوف بجوار الناس في مواقفهم الصعبة، فالعالم لا ينتظر حتى يقال له تكلم فيجب ان يبادر هو.

لأن القاعدة الأصولية الفقهية تقول: (لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة) والذين رأوا منكرات تحدث في العالم والتزموا الصمت آثمون لأنهم كاتمون العلم الذي قال اله فيه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٥٩-١٦٠] ، ويقول: {إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥]

وكذلك آية الزمر تُسعف الإنسان في حال الضغوط: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٣٦].

أجد أن مطالعة آيات القرآن والإحساس بمعاني القرآن تُربي الإنسان على العزة والكرامة والقوة والأمانة وتجعله لا يخشى في الله لومة لائم، والله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ} [المائدة: ٥٤]

وسيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما أسلم حديثًا وهو ضعيف وليس له عشيرة وقوم، فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأل من يذهب ويُسمِع المشركين القرآن، فبادر هو رضي الله عنه مع علمه بالتبعة والثمن، فيذهب ويقرأ عليهم سورة الرحمن، وقيل أنه هو أول من أسمع المشركين القرآن وبُهت المشركون وهم يسمعون عبد الله بن مسعود بهذا الصوت الندي الشجي، ولما ذهبت السكرة فضربوه، وفي اليوم الثاني سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم من يتلو القرآن على المشركين، فقال: أنا، فقالوا له: ولكنك ضُربت البارحة، فقال: والله ما كان أحدهم أحقر عندي منهم يوم أمس.

وكأن المعنى وإن لو لم يكن قد نزل في هذا الوقت لأنها آية مدنية: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩].

و الشهيد السيد قطب عليه رحمة الله يقول: (صاحب الإيمان وصاحب الرسالة وحامل الأمانة يرى أنه الأعلى وإن كان مظلومًا مضطهدًا في غيابات السجون ، إن كان معذبًا تحت أيدي الجلادين يستشعر هذه القوة وهذا العلو لأنه أبى إلا أن يسجد لله وأبى إلا أن يقول كلمته ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى).

د. راغب:

وكذلك أرى أنه من الأمانة أن يتم ذِكر الفضل لأهل الفضل حتى عند المخالفة، بمعنى لو أنا أختلف مع مذهب معين أو مع صاحب رأي معين، في الأمور الفقهية أو الحياتية أو الطبية والفلكية وغيره، فمن الأمانة أن اذكر للعالِم فضله وإن كان يعارضني ويختلف معي في الرأي، وأذكره بصفته الطيبة الحسنة من علم لديه أو الأمانة والوفاء وسعة الاستنباط وسعة الفقه.

لأن أحيانًا نجد بعض العلماء لا يذكر إلا جانبًا سيئًا من حياة عالِم ويغفل جوانب عظيمة في حياته، فهذا وضع نحتاج تعليقك عليه.

د. صلاح:

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت خلافته، جاءه رجلٌ يسأله سؤالًا، فقال له: اذهب إلى علي فهو أعلم بها مني، فيذهب الرجل ويستفتي الإمام علي فيُفتيه برأيه في المسألة، ثم يعود الرجل ويسأله عمر رضي الله عنه: بماذا أفتاك علي؟ فقال: أفتاني بكذا، فقال له: لو أفتيتك لقلت بغيره، قال الرجل: ما يمنعك وأنت أمير المؤمنين؟

فيقول الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كنت أرُدُّكَ إلى كتابٍ أو سنة، أي قطعي الدلالة والثبوت، لفعلت، لكني أرُدُّكَ إلى الرأي والرأي مشترك.

وفي موقف آخر يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (مُعضلة ولا أبا حسنٍ لها)، أي أين أبو الحسن فهو لها ويستطيع حلها.

والإمام علي بن أبي طالب بعد أن مات عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقول: "نور الله قبره كما نور مساجدنا بقراءة القرآن في نهار رمضان".

د. راغب:

إذًا من أمانة العالِم أن يذكر محاسن العلماء الآخرين ولو كانوا منافسين له أو مناظرين له، وهذا من الفضل الذي أعطاه الله عزَّوجلَّ للعلماء الراسخين المتميزين بالخلق الكريم.

د. صلاح:

ومن لديه أمانة وثقة في نفسه لا يجد حرجًا أن يذكر الآخرين بآرائهم.